فيما وراء النهر أبو منصور مُحمَّد بن مُحمَّد الماتريدي المعروفُ بإمامِ الهُدَى، فتفرَّغ لتحقيق مسائلها وتدقيقِ دلائِلِها، فأرضى بمؤلَّفاته جانبَي العقل والنقل في آن واحد»[١].

فقد حقَّقَ الماتُريديّ الأصول المروِيَّة عن أبي حنيفة في كتبهِ بقواطع الأدلَّة، وأتقنَ التفاريع بلوامع البراهين اليقينيَّة، فكانَ هو مُتَكَلِّم مدرسة أبي حنيفة، ورئيس أهل السُّنَّة والجماعة في بلادِ ما وراء النَّهر بلا منازع، وأصبح المذهب الكلامي منتسبًا إليهِ، واقتصر إطلاق اسم الحنفيَّة على متَّبِعي أبي حنيفة في الفروع[٢].

وليس الأمرُ عجبًا فالماتُريديّ صاحب مدرسةٍ فكريَّة أثَّرت ولا تزال في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وأُدْرِجَت عقيدته في برامج الجامعات الإسلامية الكُبرى كجامعةِ الأزهرِ في مصر، وجامعة الزيتونة في تونس، وجامعة القرويين في المغرب.

ولقد ظهر تأثُّر الإمام الماتُريديّ بالسَّابقين عليهِ، خاصَّةً الإمام أبا حنِيفة، الذي تابع الماتُريديّ معظم آرائهِ، لكن هذا التأثُّر لا يُقلِّل من أهميَّة الماتُريديّ وحظَّه من الابتكار، فالمفكِّر ليس مقطوع الصِّلة بفكرٍ من سبقهُ أو أتى بعده، فقضيَّةُ التأثُّر والتأثير وثيقة الصِّلة بالمفكِّرين على مدى العصور.

ولقد أثْنَى على الإمام الماتُريديّ كثيرٌ من العلماء، وسأنقلُ بعض أقوالهم عنه:

قال أبو المعين النَّسفِيّ[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو لم يكُن في الحنفيَّة إلا الإمام أبو منصور الماتُريديّ الذي غاصَ في بحور العلوم فاستخرج دُررها، وأتى حُجج الدين فزَيَّنَ بفصاحتهِ وغزارة علمه وجودة قريحته غررها، حتَّى أمر الشيخ أبو القاسم الحكيم السمرقنديّ أن يُكتب على قبرهِ حين تُوفِّيَ: هذا قبرُ من جادَ العلوم بأنفاسه، واستنفد الوُسْعَ في نشرِهِ وأقباسه، فحُمِدَت في الدِّينِ آثاره، واجْتُنِيَ من عُمره ثماره، فرحِمَهُ الله... وإنَّ ما اجتمعَ عندهُ وحدهُ من أنواعِ العلوم الملية والحكمية لن يجتمع في العادات الجارية في كثيرٍ من المبرّزين المحصّلين، ولهذا كان أستاذه الشيخ أبو نَصْر العياضي -رحمهُما الله- لا يتكلَّمُ في مجالسه ما لم يحضر الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكان كُلَّما رآهُ من بعيدٍ نظر إليهِ نظرة المتعجِّب، وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ [سورة القصص:٦٨]»[٤].

---

(١) يُنظر: تعليق الكوثريّ على إشارات المرام، للبياضيّ (ص:٢٩٨).

(٢) يُنظر: إشارات المرام (ص:٢٣)، تَقدِمة كتاب التوحيد، للماتُريديّ (ص:٥).

(٣) مَيْمُون بن محمَّد بن محمَّد بن المعتمد المكحوليّ النَّسفيّ، يُعَدُّ من أهمِّ وأشهرِ علماء الماتريديَّة، من تصانيفه: (تبصرة الأدلة في علم الكلام)، و(إيضاح المحجة لكون العقل حُجَّة) وغيرهما، تُوفِّيَ سنة (٥٠٨هـ). يُنظر: الطبقات السنية في تراجم الحنفية (٥١٣/٤)، تاج التراجم (ص:٧٨).

(٤) تبصرة الأدلَّة في أصول الدين وعلمِ الكلام، للنسفيّ (ص:٤٧١-٤٧٣).

وقال عنهُ الإمام السيوطِيّ[١]: «الإمام أبو منصور هو إمام الحنفيَّة في الاعتقاديات، كما أنَّ أبا الحسن الأشْعَريّ إمام الشافعيَّة في ذلك»[٢].

وقال عنهُ اللكنويّ[٣]: «إمامُ المتكلِّمين، ومُصحِّحُ عقائد المسلمين، ... وصَنَّفَ التصانيف الجليلة وردَّ أكاذيب أقوال أصحاب العقائد الباطلة»[٤].

وهذهِ الأقوالُ غيضٌ من فيْضٍ ممَّا سطَّرتهُ أقلام الفقهاء والعلماء بحقِّ الإمام الماتُريديّ رَحِمَهُ اللهُ.

شُيوخُهُ:

تتَلْمذَ الإمام أبو منصور الماتُريديّ على نُخْبَةٍ من عُلماء المذهب الحنفي، الذين برعوا في الفقه والكلام والأصول، واغترفوا من معينِ كُتب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ، وهذا مسردٌ بمنِ اشتهر منهم:

١. محمَّد بن مقاتل الرازيّ (ت:٢٤٨هـ).

عدَّهُ جماعةٌ أنَّهُ من شيوخ الماتُريديّ[٥]، وتولَّى قضاء الرَّي، وأخذَ عن أبي مُطيع الحكم بن عبد الله البلخيّ، وأبي مُقاتل حفص السمرقنديّ، ومحمَّد بن الحسن الشيبانيّ عن أبي حنيفة الإمام، من مؤلَّفاتهِ كتاب المدَّعي والمدَّعَى عليه، سمِعَ منه البخاري ولم يُحَدِّث عنه[٦].

٢. نصير بن يَحيى البلخيّ (ت:٢٦٨هـ).

ذُكِرَ من عِدَادِ شيوخ الماتُريديّ[٧]، اجتمع مع الإمام أحمد بن حنبل، وبحث معه في مسألة الرأي في

---

(١) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الإمام الحافظ المؤرخ الأديب المسند المحقِّق المدقِّق، كان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه رجالًا وغريبًا ومتنًا وسندًا واستنباطًا للأحكام منه، وهو صاحب المؤلَّفات الفائقة النافعة، وقد تبحَّر في علوم الحديث، والتفسير، والفقه، والنحو، والبيان والبديع)، توفِّي سنة (٩١١هـ). يُنظَر: شذرات الذهب (٨/٥١ وما بعدها)، مفاكهة الخلان (١/٢٩٤).

(٢) الحبائك في أخبار الملائك، للسيوطيّ (١/٢٥٤).

(٣) محمَد عبد الحيّ بن عبد الحليم بن أمين الله اللكنويّ الأنصاري الهندي، أبو الحسنات، عالمٌ بالحديث والتراجم، من كتبه: الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، والفوائد البهية في تراجم الحنفية، تُوفِّيَ سنة (١٣٠٤هـ). يُنظر: الأعلام (٦/١٨٧).

(٤) الفوائد البهيَّة (ص:١٩٥).

(٥) يُنظر: إشارات المرام (ص:٢٣)، شرح الإحياء (٢/٥).

(٦) يُنظر: شرح الإحياء (٢/٥)، الجواهر المضيَّة (٣/٥٤٦)، الفوائد البهيَّة (ص:٢٢١).

(٧) يُنظر: شرح الإحياء (٢/٥)، إشارات المرام (ص:٢٣).

مذهب أبي حنيفة[١]، تَفَقَّهَ على أبي سُلَيْمان الجوزجانيّ[٢]، وهو عن أبي يوسف ومحمَّد، وهما عن الإمام أبي حنيفة، وتَفَقَّهَ -أيضًا- على أبي مُطيع الحكم البلخيّ، وأبي مقاتل حفص السمرقنديّ[٣].

٣. أبو نصر العياضيّ.

أحمد بن العباس بن الحسين بن جبَلَة بن غالب بن جابر بن نوفل بن عياض بن يحيى بن قيس بن عُبادة الأنصاريّ الخَزْرَجِيّ الفَقِيه السَّمَرْقنديّ أبو نصر العياضيّ.

كانَ من أهلِ العلمِ والجهاد، وله ولدان من أئمَّة الفقه الحنفي: أبو بكر مُحَمَّد، وأبو أحمد.

وأبو نصر العياضيّ ينتسِبُ إلى الأنصار الذين ينتسِبُ إليهم الماتُريديّ، ولم يكن يضاهيه في علمِهِ وورعِهِ وجلادتِهِ وشهامتِهِ أحد، ويُروى أنَّهُ لما استشهد خَلَّفَ أربعين رجلاً من أصحابه كانوا من أقران الماتريدي[٤].

وذكر أبو المعين النسفيّ أنَّ أبا نصر العياضيّ رَحِمَهُ اللهُ كان يداوم على جهاد أعداء الله الكفرة، وكان من أشجع أهلِ زمانه، وأربطهم جأشًا، وأشدِّهم شكيمة،.. وكان في العلمِ بحرًا لا يُدرَك قعره، إمامًا في الفروع والأصول لا يُدانيه غيره[٥].

وقد أخذَ الماتُريديّ العِلم عن أبي نصر هذا عن أبي بكْر أحمد بن إسحاق الجوزجانيّ، عن الإمامين أبي يوسف ومحمَّد عن الإمام أبي حنيفة -رحِمَهم الله-[٦]، ولم أهتدِ إلى سنة وفاته على رفعةِ منزلتِهِ بين العلماء!

٤. أبو بكر أحمد الجوزجانيّ:

أحمد بن إسحاق بن صبيح[٧] الجوزجانيّ ثم البغداديّ الحنفيّ[١]، وهو من شيوخ الإمام الماتُريديّ،

---

(١) يُنظر: الجواهر المضيَّة (٣/٥٤٦)، كتائب أعلام الأخيار (١/٤٠٧).

(٢) يُنظر: شرح الإحياء (٢/٥)، الجواهر المضيَّة (٣/٥٤٦).

(٣) يُنظر: شرح الإحياء (٢/٥).

(٤) يُنظر: الجواهر المضيَّة (١/١٧٧)، الطبقات السنيَّة (١/٤١٨)، الأنساب (٩/١٣٠)، اللباب، لابن الأثير (٢/٣٦٨).

(٥) يُنظر: تبصرة الأدلة (ص:٥٥٤).

(٦) يُنظر: الجواهر المضيَّة (١/١٧٧).

(٧) اختُلِف في اسمِ جدِّه، قيل: صالح، وقيل: صَبيح، وقيل: صُبْح. يُنظر: كشف الظنون (٢/١٤٠٦)، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل باشا (١/٤٦).

فقد روَى الماتُريديّ عن أبي بكرٍ هذا عن أبي سُليمان موسى الجوزجانيّ عن أبي يوسف ومحمَّد[٢]، وكان من الجامعين بين علم الأصول وعلم الفروع، لهُ كتاب: الفرق والتمييز، وكتاب التوبة، وغيرهما[٣]، ولم أقِف على تاريخ وفاته.

وبذلِك تمَّ نصاب شيوخ الإمام الماتُريديّ ليكونوا السلسلة المتَّصِلَة بين الإمام أبي حنيفة، وبين الإمام الماتُريديّ، الذي عَكَفَ على تحقيقِ آراءِ إمامه أبي حنيفة بقواطعِ الأدلَّة[٤].

تَلَامِيذُهُ:

إنَّ عالماً كالإمامِ الماتُريديّ رافِعُ لِواء مدرسةٍ فكريَّة في علمِ العقائد، تناقلها الخلفُ عن السَّلفِ جيلًا بعد جيل، لَقَمِنٌ أن يتقاطرَ عليهِ رُوَّادُ العلمِ وطُلَّابُه، فقد تتلْمَذَ عليه ثُلَّة من العلماء الأفذاذ، غير أنَّ كتب التراجم كانت شحيحة بذكرٍ من أخذوا مباشرةً عن هذا الإمام الجليل، وممَّن جادَتْ به المصادر والمراجع:

١. أبو أحمد العياضي.

ابنُ أبي نصر العياضيّ، كان زميلًا للماتُريديّ في حلقةِ والده، وقد تخرَّج على يدِ الماتُريديّ بعد وفاةِ والده، ويذكر مؤرِّخو الحنفيَّة أنَّ أحمد العياضي بلغ شأنًا عظيمًا في العلمِ والعمل، ورُوِي عن الشيخ أبي القاسم الحكيم السمرقنديّ أنَّهُ قال: ما خرج من خراسان ولا من وراء النَّهر منذ مائة سنة مثله علمًا وفقهًا ولسانًا وبيانًا ونزاهةً وعفةً وتُقًى، قيل له: يرحمك الله، ومن كان يُضاهيه قبل هذه المائة؟ فجعل يذكر طبقات العلماء والفقهاء والبلغاء والفصحاء بها إلى يومِهِ، فلم يجد في كافَّتهم ممَّن يقرن به فيُماثله أو يُقاس بهِ فيُعادِلَهُ[٥].

٢. أبو القاسم الحكيم السَّمرْقندِيُّ (ت:٣٤٢هـ).

إسحاق بن محمَّد بن إسْمَاعيل بن إبْرَاهيم بن زيد القاضي الحكيم السمرقنديّ.

أخذَ الفقه والكلام عن الماتُريديّ مباشرةً، ويُعدُّ من أشهر تلاميذِهِ، وولي القضاء في سَمَرْقَند، وحمدت سيرته، ولُقِّبَ بالحكيم؛ لدقَّةِ كلماته ومواعظه، انتشر ذكره بين الماتُريديَّة.

---

(١) يُنظر: الجواهر المضيَّة (١٤٥/١)، الطبقات السنيَّة (٣١٩/١).

(٢) يُنظر: إشارات المرام (ص:٢٣)، شرح الإحياء (٥/٢).

(٣) الجواهر المضيَّة (١٤٤/١).

(٤) يُنظر: تَقْدِمة كتاب التوحيد (ص:٤،٥).

(٥) يُنظر: تبصرة الأدلَّة (ص:٥٥٤)، الجواهر المضيَّة (٣٧١/١)، الطبقات السنيَّة (١٥٨/٢).

قال السَّمعانيُّ بعد أن ذكر نسبةُ بطوله: «كانَ من عِبَادِ الله الصالحين، وممَّن يُضْرَبُ به المثل في الحلمِ والحِكْمةِ وحُسْنِ العشرة، تولَّى قضاء سَمَرْقَنْد أيامًا طويلةً، وكانت سيرته محمودة، قد دُوِّنت حكمته، وانتشرَ ذكرهُ في شرقِ الأرضِ وغربِها بأبي القاسم الحكيم، لكثرةِ حِكَمِهِ ومواعظه، يَرْوِي عن عبد بن سهل الزَّاهد، ومحمد بن خزيمة القلّاس، وعمرو بن عاصم المروزيّ وغيرهم، رَوَى عنهُ أبو جعفر بن محمَّد منيب السمرقنديّ، ومحمَّد بن عمران بن المشهي الأسحيّ، وعبد الكريم بن محمَّد الفقيه السَّمرقنديّ وجماعة، وتُوفِّيَ في المحرَّم يوم عاشوراء سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة بسمرقند، ودُفِنَ بمقبرة جَاكرديزه»[١]، من كُتُبِهِ: الرَّدُ على أصحاب الهوى وهو المسمَّى بـ (السَّواد الأعظم) على مذهبِ أبي حنيفة، ورسالة في بيان أنَّ الإيمان جُزءٌ من العمل[٢].

٣. علي بن سعيد الرُّسُتُغْفَنِيّ (ت:٣٤٥هـ).

أبو الحسن علي بن سعيد الرُّسُتُغْفَنِيّ، والرُّسُتُغْفَنِيّ نسبةً إلى قريةٍ من قرى سَمَرْقَنْد، ويُعَدُّ أبو الحسن من كبارِ عُلماء هذه البلدة، ومن أصحابِ الإمام الماتُريديّ الكِبَار، ولهُ ذِكْرٌ في الأصول والفقه من كتب الحنفيَّة، من آثاره: (إرشاد المهتدي)، و(الزوائد والفوائد في أنواع العلوم)، و(الأسئلة والأجوبة)[٣].

٤. عبد الكريم بن مُوسَى البزدويّ[٤] (ت:٣٩٠هـ).

عبد الكريم بن موسى بن عيسى أبو محمَّد الفقيه البزدويّ، تفقَّه على الإمام الماتُريديّ، وهُوَ جدُّ فخر الإسلام البَزدويّ، صاحبُ كتاب كنز الوصول إلى علم الأصول في (أصولِ الفقه) والمعروفُ بأصول البزدوي، وهو جدُّ صدر الإسلام أبي اليُسْر البزدويّ، وهو من رجال الماتُريديَّة المعدودين، ولهُ كتاب أصول الدين[٥].

٥. أبو عِصْمَة بن أبي اللَّيْث البخاريّ.

صاحب أبي القاسم إسحاق بن محمَّد المعروف بالحكيم، ومن أقرانهما وأستاذهما الإمام الماتُريديّ، وعنْهُ أخذا علم الكلامِ والفقه، ولم يُذْكَرْ لهُ تاريخ وفاة[٦].

والملاحَظُ أنَّ مُعظم أتباع الإمام الماتُريديّ تعمَّقوا في الجانب الفقهي، بينما لم ينل الجانب الكلامي

---

(١) الأنساب (٢٤٣/٢،٢٤٤).

(٢) يُنظر: الجواهر المضيَّة (٣٧١/١)، الطبقات السنيَّة (١٥٨/٢).

(٣) يُنظر: الأعلام (٢٩١/٤).

(٤) نِسْبةً إلى بَزْدَة، وهي قلعةٌ حصينةٌ على ست فراسخ من نَسف. يُنظر: الأنساب (٢٠١/٢).

(٥) يُنظر: الجواهر المضيَّة (٤٥٨/٢)، الطبقات السنيَّة (٣٧٨/٤)، الفوائد البهيَّة (ص:١٠١).

(٦) يُنظر: الجواهر المضيَّة (٢٦١/٢).

نفس القدر من الاهتمام، وكان جهدهم في العقائد مجرَّد تعليقاتٍ مقتضبة، أو قضايا مفردة، ويعودُ ذلك إلى سببين:

الأوَّل: أنَّهم رأوا في جهود وكتب الماتُريديّ العقديَّة الكفاية.

الثَّاني: قلَّة المناظرات العقديَّة بينهم وبين مُخالِفِيهم(١).

ويُمكن أن يُضاف سببٌ آخر وهو: دخول كثيرٌ من أهلِ الديانات الأخرى في الإسلام، فكان جهد هؤلاء الأئمَّة متَّجِهًا إلى تعليمِ النَّاس أصول العبادات وكيفياتها، فانصرفوا عن التوسُّع في الكلام، وكرَّسوا جهدهم لدراية وتصنيف فروع الفقه الحنفي.

ومن خلالِ دراسة شيوخ الماتُريديّ وتلاميذه نُلاحظ أنَّ بيئة الماتُريديّ كانت غاصَّةً بالعلماء الكبار من ذوي القدر والسَّبق، كما يتَّضح لنا طبيعة الحياة العلميَّة والفكريَّة والثقافيَّة الحافلة التي كان يعيشها هذا العالم الجليل، ومدى ما بلَغَتْهُ من نُضجٍ وازدهار.

مُؤَلَّفاته:

أمَّا تواليفُه فإنَّها خير دليلٍ على سعةِ علمه، وعُمْقِ ثقافته وتنوُّعها، وإلمامِهِ بشتَّى صنوفِ المعرفةِ في زمانه، فكانت ثقافةً متنوِّعةً في شتَّى ضروب المعارف والعلوم، ولقد حَظِيَت هذه المؤلَّفات بعنايةِ قاصدي العلم، فسَعَوْا لتحقيقها ودراستها، وفيما يلي مسردٌ لمؤلَّفاته التي صحَّت نسبتها إليه، ولقد أنفقتُ زمنًا معتبرًا في تتبُّعِها في البرامجِ والفهارسِ والتراجم، وألفيتُ أنَّ أَوْثَق مصدرٍ ذكر تواليف الماتريديّ وأقدمها هو كتاب (تَبْصِرة الأدلَّة) للإمام أبي المعين النَّسفي، فقد ذكر في ترجمةِ الإمام الماتُريديّ ثلاثة عشر كتابًا من مؤلَّفاته(٢)، ولا يخفى على الباحثِ أو الدَّارسِ ما أصاب الأمَّة الإسلاميَّة وتُراثها من أحداثٍ ضيَّعت أكثر مؤلَّفاتِها ونسَبَت كثيرًا منها إلى غيرِ أصحابها، فغالبُ كتب الإمام الماتُريديّ مفقودٌ(٣).

ويُعَدُّ كتاب (أبو منصور الماتُريديّ: حياتهُ وآراؤه العقديَّة) لمؤلِّفهِ د. بلقاسم الغالي أحدَث كتابٍ درس حياة أبي منصور وثقافته ومدرسته ومؤلَّفاته؛ وقد بيَّن لنا في نهايةِ الأمر حصيلة ما أبقى لنا الزَّمن من آثار الإمام الماتُريديّ.

وفي تقديمها آثرْتُ ترتيبها حسب العلمِ الذي تندرج تحته، وهي:

---

(١) يُنظر: الفرق الكلاميَّة الإسلاميَّة مدخلٌ ودراسةٌ، للدكتور علي عبد الفتاح المغربيّ، (ص:٣٣٠).

(٢) يُنظر: تبصرة الأدلَّة (ص:٤٧٢).

(٣) يُنظر: تاج التراجم (ص:٢٥٠)، الأعلام (١٩/٧)، معجم المؤلفين (٣٠٠/١١)، كشف الظنون (٣٣٥/١، ٥١٨، ٧٥١).

❖ في علمِ التفسير:

لهُ كتاب (تفسير تأويلات أهل السُّنَّة)، مطبوعٌ، وهو الكتاب الذي بين أيدينا، وسيأتي الحديث عنهُ بإفاضةٍ في حيِّزه -بإذنِ الله-[(١)].

❖ في علمِ الكلام:

فقد كانت تواليف الإمام الماتُريديّ كثيرة، وقد تحدَّثت عن التيَّارات الفكريَّة التي هزَّت كيان الأمَّة الإسلاميَّة، وجمعت القضايا العقديَّة التي تناولتها الفرق السياسيَّة والدينيَّة، وردَّت عليها ردًا موضوعيًا بعيدًا عن الإسفاف والهوى.

ونستطيعُ أن نُصَنِّف كتب الماتُريديّ في علم الكلام في موضوعاتٍ ثلاثة: أصول التَّوحيد والمقالاتُ والردودُ.

١- كتاب (التَّوحيد) مطبوعٌ[(٢)]، ويتصدَّر هذا الكتاب كتب أبي منصورٍ في علم الكلام، وهو عُمدة الماتُريديَّة، وأساس مذهبهم بعد كتب أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وموسوعةٌ كلاميَّة تدلُّ على العقليَّة الفذَّة لدى الإمام الماتُريديّ، والتي تتجلَّى في إقامته الأدلَّة على صحَّةِ الاعتقاد، وتقريرِهِ مسائل العقيدة، وأصول علم الكلام، وجعل عنوان كتابه (التوحيد)؛ ليُؤَكد أنَّ الإسلام إنَّما جاء بالتوحيد الخالص، وليَرُدَّ به على مَن كَلَّت بصائرُهُم، ومَرِضت أهواؤُهم، ودَوِيَت قُلوبُهم وهم الفرق الضالَّة التي كانت سائدة في تلك البلاد.

٢- كتاب (المقالات)، أقدمُ مصدرٍ في علم الكلام للماتريديَّة، وقد بسط فيهِ الماتريديّ مقالات الفرق، وما زالَ مخطوطًا حبيسًا في مكتبةِ كبرلي في إستانبول تحت رقم (٨٥٦)[(٣)].

٣- في الرّدِّ على الفِرَق: تصدَّى الإمام أبو منصور الماتُريديّ إلى كُلِّ من كتبَ في غيرِ مذهبِ أهل السُّنَّةِ والجماعة لا سِيما في مذهبٍ منحرفٍ عن السُّنَّة؛ فرَدَّ على أبي مُحمَّد الباهليّ[(٤)] في كتابِ (ردّ الأصولِ الخمسة)[(٥)]، وردَّ على أبي القاسم الكعبيّ[(٦)] على كُتُبِه بكتاب (ردّ تهذيب الجدل)[(٧)]، وكتاب (ردّ

---

(١) يُنظر: الباب الأوَّل من هذهِ الأطروحة، الفصل الأوَّل - المبحثُ الثاني.

(٢) مطبوعٌ سنة (١٩٧٩م)، حقَّقه د. عبد الله خليف، ووضع لهُ مقدِّمة غنيَّة بموضوعه وفضلِ مصنِّفِهِ في الدفاع عن العقيدة الإسلاميَّة وأهل السُّنَّة.

(٣) يُنظر: كشف الظنون (١٧٨٩/٢)، مفتاح السعادة (٩٦/٢)، هدية العارفين (٣٦/٢).

(٤) هكذا في تبصرةِ الأدلَّة (ص:٤٧١-٤٧٣)، ولم أقِف على ترجمته.

(٥) يُنظر: تبصرة الأدلَّة (ص:٤٧٢)، مفتاح السعادة (٩٦/٢)، تاج التراجم (ص:٥٩).

(٦) أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخيّ الكعبيّ الحنفيّ المتكلم، وهو أحد مشايخ المعتزلة في بغداد، نُسِبت إليه طائفة الكعبيين، تُوفِّيَ سنة (٣١٩هـ). يُنظر: تاريخ الإسلام (٣٥٥/٧).

(٧) يُنظر: تبصرة الأدلَّة (ص:٤٧٢)، مفتاح السعادة (٩٦/٢)، كشف الظنون (١٧٨٢/٢).

وعيد الفُسَّاق)[١]، وكتاب (ردّ أوائل الأدلَّة)[٢]، وبيَّن ضياع أتباع المعتزلة في كتاب (بيان وهمِ المعتزلة)[٣]، وردَّ على الروافض في كتابِ (ردّ الإمامة لبعضِ الروافض)[٤]، وردَّ أخيرًا على القرامطة في كتابينِ: الأوَّل: (الرَّد على أصول القرامطة)، والثاني: (الرَّد على فروعِ القرامطة)، وقد عدَّهما طاشْكُبري زاده والنَّسفي كتابين، وعند غيرِهما كتابٌ واحد بعنوان (الرد على القرامطة)[٥].

وقد فُقِدَت هذه الردود من المكتبة العربيَّة الإسلامية، وتدُلُّ موضوعاتها دلالةً واضحةً على شدَّةِ تيارات تلك المذاهب المخالفة التي أرادت أن تُسيء إلى الأُمَّة الإسلامية وإلى دينها الحنيف، وتمكُّن أبي منصور الماتُريديّ من التَّصدِّي لها، والرَّدِّ عليها بأسلوبٍ علميٍّ منطقيٍّ.

❖ **في أصول الفقه:**

فقد صنَّف كتابين اثنين[٦]، هما:

١- كتاب (مآخذ الشَّرع).

٢- كتاب (الجدل).

وهُما من عُمدةِ كتب أصول الفقه عند الحنفيَّة، جامِعَيْنِ للأصولِ والفروع، وقد كانا غايةً في الإحكام والإتقان، وحُسن التصنيفِ والترتيب، ومَرْجِعَيْن لعلمِ أصول الفقه إلى القرنِ السادس الهجري حين ظهر كتاب (تقويم الأدلَّة) لأبي زيد بن عمر الدبوسيّ (ت:٤٣٠هـ)، وكتاب (كنز الوصول إلى علم الأصول) لفخر الإسلام البزدويّ (ت:٤٨٢هـ)، وكتاب (الأصول) لأبي بكر السرخسيّ (ت:٤٨٣هـ)، وكانت هذه الكتب خيرَ تعويضٍ عن كتابي أبي منصور الماتُريديّ اللَّذيْنِ فُقِدا فيما فُقِد من الخزانة الإسلاميَّة[٧].

---

(١) يُنظر: إشارات المرام (ص:٧)، تَقدِمة كتاب التوحيد (ص:٦).

(٢) يُنظر: تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان (٤/٤٣).

(٣) يُنظر: كشف الظنون (١/٢٦٢)، مفتاح السعادة (٢/٩٦)، هدية العارفين (٢/٣٦)، شرح الإحياء (٢/٥).

(٤) يُنظر: مفتاح السعادة (٢/٩٦)، إشارات المرام (ص:٧)، تاريخ المذاهب (١/٢١٠).

(٥) يُنظر: تبصرة الأدلَّة (ص:٤٧٢)، مفتاح السعادة (٢/٩٦)، تاج التراجم (ص:٥٩).

(٦) يُنظر: كشف الظنون (٢/١٤٠٨)، مفتاح السعادة (٢/٩٦)، تاج التراجم (ص:٥٩)، الفوائد البهية (ص:١٩٥).

(٧) يُنظر: الإحالة السابقة.

المطلبُ الثَّالث:
وفـــاتُه

أجمعَ معظم من ترجمَ للإمام الماتُريديّ على أنَّهُ تُوفِيَّ سنة ثلاثٍ وثلاثين وثلاثمائةٍ بعد الهجرة النبويَّة(١)، إلَّا ما قد وقع عند أحد المؤرِّخين وهو حاجّي خليفة(٢) أنَّ الماتُريديّ تُوفيَّ سنة اثنتيْنِ وثلاثين وثلاثمائةٍ بعد الهجرة(٣) مع أنَّه قد وقع عنده في مواضع أنَّهُ تُوفيَّ سنة ثلاثٍ وثلاثين وثلاثمائةٍ موافقًا لبقية المؤرِّخين(٤)، أمَّا طاشْكُبْرِي زَادهْ فيذكر أنَّهُ تُوفِيَّ سنة ستٍّ وثلاثين وثلاثمائةٍ بعد الهجرة(٥)، والأوَّلُ هو المشهور والصَّحيح وهو ما أجمع عليهِ أصحاب الطَّبقات.

ودُفِنَ في سَمَرْقَنْد(٦)، وقيل: ومدفنهُ بجَاكَرْدِيزَه(٧)، تاركًا تُراثًا ثَرًّا يهتدي به أقرانهُ وتلامذتهُ والأجيال من بعدهِ.

رحِمَهُ الله، وآواهُ الجنَّة، وسَقَى رَمْسهُ سُحب الرَّحمات، وجزاهُ عنَّا خيرًا، ونفعنا بعلمهِ وآثاره.

---

(١) يُنظر: الجواهر المضيَّة (٣/٣٦١)، شرح الإحياء (٢/٥)، مفتاح السعادة (٢/٨٦).

(٢) مُصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني، المعروفُ بـ (حاجّي خليفة) وبـ (كاتب جلبي)، جُغرافي ومُؤرّخٌ تركي، اكتسب شُهرةً واسعةً بمعجمهِ الببليوغرافي الكبير (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)، ولهُ زهاء عشرين كتابًا في غايةِ الأهمية، تُوفيّ سنة (١٠٦٧هـ). يُنظر: دائرة المعارف الإسلامية (٧/٢٣٥).

(٣) يُنظر: كشف الظنون (٢/١٤٠٦).

(٤) يُنظر: المصدر السابق (٢/١٤٠٨، ١٥٧٣، ١٧٨٢).

(٥) يُنظر: طبقات الفقهاء (ص:٥٦)، مفتاح السعادة (٢/٨٦).

(٦) يُنظر: الجواهر المضيَّة (٣/٣٦١)، شرح الإحياء (٢/٥)، مفتاح السعادة (٢/٨٦).

(٧) مرام الكلام في عقائد الإسلام، لعبد العزيز الفرهارويّ (ص:٦).

المبحثُ الثَّانِي:
معالمُ منهجيَّةِ الإمامِ الماتريدي التفسيريَّة

وفيهِ مطلبان:

- المطلبُ الأوَّل: سماتُ تفسير (تأويلات أهل السنَّة) وقيمته العلميَّة.

- المطلبُ الثَّاني: المكانةُ التَّفسيريَّة للإمام الماتريدي، وأثرهُ على من بعده من المفسِّرين.

المطلبُ الأوَّل: سماتُ تفسير (تأويلات أهل السنَّة) وقيمته العلميَّة

يتبوَّأ تفسيرُ (تأويلات أهل السُّنَّة) موقعًا مميَّزًا بين كُتبِ التَّفسير، ومُؤلَّفاتِ علوم القرآن، ويُعَدُّ من أهمِّ الكتب التفسيريَّة في المذهب الحنفي، فهو المنهل الذي ينهلُ منه أتباع هذا المذهب، وهو عند الحنفيَّة لا يُوازيهِ كتابٌ قبلهُ ولا بعده(١)، كما قال ذلك -أيضًا- ابن أبي الوفاء(٢): «إنَّهُ لا يوازيهِ كتابٌ، ولا يُدانيهِ شيءٌ من تصانيفِ من سبقهُ في ذلك الفن»(٣)، وقال عنهُ الكوثريّ: «كتابٌ لا نظير لهُ في بابه»(٤)، ويُعَدُّ من أهمِّ الكتب عند أهلِ السُّنة والجماعة على مرِّ الأزمانِ والعصور.

وبعد استقراءٍ كاملٍ لتفسير الإمام الماتُريديّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجدتُّ أنَّ تفسيرهُ بَيِّن المنهج، سَهْل المخرج، مُطَّرِد السِّياق، مُتَّسِق النظام، معناهُ ظاهرٌ في لفظه، ومغزاهُ تابعٌ لقوله، وعباراتهُ حرَّةٌ مِعْطَارة، هذَّبها فأحسن تهذيبها، وشذَّبها فأنَّق تشذيبها، عرَض بها الآراء، وناقش بها المخالف، في اعتدال الحكماء وأناةِ العلماء، قد ألَّف تأويلاتهُ تأليفًا، وحَبَّرها تحبيرًا، وصَنَّفها تصنيفًا، ورصَّفها ترصيفًا، والسِّرُّ في هذا كُلِّه هو أنَّ مُصنِّف الكتاب رجُلٌ ممَّن أشرب الله قلوبهم حُبَّ القرآن وتفسيرِهِ.

وهو تفسيرٌ خطابيٌّ واستنباطيٌّ، لا يكترث بإيراد الروايات والأسانيد وأسماء العلماء كدليل على المرجعيَّة التفسيريَّة؛ إذْ يحتل المفسِّر موقع الصدارة، كما في تفسير مقاتل بن سُليمان، أو أي تفسير مبكِّر كُتِبَ لهُ البقاء(٥).

---

(١) يُنظر: تبصرة الأدلة (ص:٢٢١).

(٢) عبد القادر بن محمَّد بن نصر الله بن سالم بن أبي الوفاء القرشي الحنفي المصري، أبو محمَّد، محيي الدين، أوَّل من صنَّف في طبقات الحنفية، عالمٌ بالتراجم، من حفاظ الحديث، ومن فقهاء الحنفية، من مصنفاته: البستان في فضائل النعمان، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تُوفي سنة (٧٧٥هـ). يُنظر: الدرر الكامنة (٣٩٢/٢).

(٣) يُنظر: الجواهر المضية (١٣٠/١، ١٣١).

(٤) تقدِمة إشارات المرام (ص:٧).

(٥) يُنظر: بحث بعنوان: إعادة قراءة الطبري بعيون الماتريدي -إطلالة جديدة على القرن الثالث الهجري-، وليد صالح (ص:١١ وما بعدها)، الناشر مركز تفسير للدراسات الإسلامية.

ولقد أَغْنَى الإمام الماتُريديّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابهُ بوابلٍ من التحليل والنقد، ولم يكن هذا معهودًا في التفسير قبل الماتريديّ؛ حيث كان التفسير يعتمد على الرواية دون تدخُّلٍ كبيرٍ من المفسّر ودون نقدٍ أو تمحيصٍ أو تحليلٍ، ففتح الماتريدي بهذا الباب واسعًا أمام من جاء بعده للتوسُّعِ في التحليل والشرح والتأويلات للآيات بإعمال العقل والنقل جميعاً.

ونجد أنَّ الماتريديّ توسَّع في تفسيره في إعمال العقل، لكنَّهُ مقيدًا بالنص، وهو لونٌ من ألوان التجديد؛ حيث استطاع الماتريدي الموازنة بين العقل والنقل، وقد كان السابقون عليه يعتمدون في تفسيراتهم على النقل فقط.

ويُعَدُّ من التجديد في الإطار العام للمنهج عند الماتريديِّ في تفسيره الاستغناء عن ذكر السَّنَدِ عند التفسير بالمرويات.

وانتهاجًا لِمَهْيَع من قعَّد مدارس التفسير، فنجد أنَّ الإمام الماتُريديّ يقفُ بين مدرستي التفسير بالمأثور ومدرسة التفسير بالرَّأي، فاتَّخذ من النقلِ والعقلِ طريقًا للتفسير.

وبيانُ ذلك: أنَّ الماتريديّ في تفسيره قد استجمع شرائط مدرسة العقل والنَّقل، حيث إنه استند على المأثور كما استند على المعقول، وهذهِ سمةٌ بارزةٌ عنده، فقد رأى رَحِمَهُ ٱللَّهُ خطأً الوقوف عند حدِّ النقل أو المغالاة في الجانب العقلي، فالموقف العدل -عنده- هو التوسُّط بينهما، وذكر أنَّ من دواعي استحسان هذا الموقف الوسط هو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [سورة البقرة:١٤٣]، ووسطيَّة الماتريديّ قائمة على ردِّ كلِّ ما لا يتفق مع أهل السُّنَّة من المعتزلة والمشبِّهة وغيرهم، وتقرير عقائد أهل السُّنَّة في أثناء تفسيره بالأدلَّة النقلية والعقلية.

وإنَّ عنوان الكتاب (تأويلات أهل السُّنَّة) يدعونا إلى بيانِ معنى التفسير والتأويل، ولقد أعربَ الإمام الماتُريديّ عن معناهما، والمنهج الذي رسمه لهما، فقال في مُقَدِّمةِ تفسيره: «الفرقُ بين التَّأويلِ والتَّفسيرِ هو ما قيل: التَّفسيرُ للصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، والتَّأويلُ للفقهاء»(١).

ثُمَّ بيَّنَ الفرق بينهما بأسلوبِ علم الكلام الذي برع فيه في كلِّ كتبه، ومثَّل لذلك بمثالٍ عرَضَ فيهِ أقوال المفسّرين والمؤوِّلين منتهيًا إلى قاعدةٍ هي: «التَّفسيرُ ذو وجهٍ واحدٍ، والتأويلُ ذو وجوهٍ»، محذِّرًا من يعتمد في تفسيرهِ على رأيهِ، ومردِّدًا قول الرَّسولِ ﷺ «... ومَن قال في القرآنِ برأيهِ فلْيَتَبَوَّأ مقعده من

(١) تأويلات أهل السُّنَّة (٣٤٩/١).

النَّار»[١]، وذلك بقولِهِ: «ومعنى ذلك: أنَّ الصَّحابة شهدوا المشاهد، وعَلِمُوا الأمر الذي نزل فيه القرآن، فتفسير الآية أهمُّ لما عاينوا وشهدوا، إذ هو حقيقة المراد، وهو كالمشاهدة، لا تسمح إلا لمن علم، ومنه قيل: من فَسَّرَ القرآن برأيه فليتبوَّأ مقعده من النَّار؛ لأنَّه فيما يُفَسِّر يشهد على اللَّه به.

وأما التَّأويل: فهو بيانُ منتهى الأمر، مأخوذٌ من: آل يؤول، أي يرجع، ومعناه كما قال أبو زيد: لو كان هذا كلام غيره يوجه إلى كذا وكذا من الوجوه، فهو توجيه الكلام إلى ما يُتَوجَّه إليه، ولا يقع التشديد في هذا مثل ما يقع في التفسير، إذ ليس فيه الشهادة على اللَّه؛ لأنه لا يخبر عن المراد، ولا يقول: أراد اللَّه به كذا، أو عنى، ولكن يقول: يتوجَّه هذا إلى كذا وكذا من الوجوه، هذا مما تكَلَّم به البشر، واللَّه أعلم ما صحته من الحكمة.

ومثاله: أنَّ أهل التَّفسير اختلفوا في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [سورة الفاتحة:٢]، قَالَ بَعْضُهُمْ: إن اللَّه تعالى حَمِدَ نفسه، وقَالَ بَعْضُهُمْ: أمر أن يُحْمَد، فمن قال: عنى هذا، دون هذا، فهو المفسِّرُ له.

وأما التَّأويل فهو أن يقول: يتوجه الحمد إلى الثناء والمدح له، وإلى الأمر بالشكر لله ﷻ، واللَّه أعلم بما أراد، فالتفسير ذو وجهٍ واحد، والتأويل ذو وجوه»[٢].

ولهذه الغاية التي أوردها الإمام الماتريدي فإنَّهُ استعان في تحقيق مراده بأدواتٍ علميَّةٍ ومنهجيَّةٍ مختلفة، امتلك ناصيتها بفضلِ ثقافته الواسعة والشَّاملة لمختلف المعارف الإسلامية والفلسفية، وفيما يلي سأورد نَصَّين لباحِثَيْنِ متخصِّصَيْن في الإمام الماتريديّ وفكره، وقد أبانا عن منهجه في التفسير على وجهِ الإجمال، على أن تتوالى الفقرات الموالية تفصيل هذا المنهج مدعمًا بالشواهد من تفسيره.

وأول هذين النَّصَّيْن هو قول د. عبد الفتاح المغربي: «وفي كتاب تأويلاتِ أهل السُّنَّة نستطيع أن نتلمس منهج الماتريدي في التأويل والتفسير، ويمتاز ذلك المنهج بالوضوح، فهو يذكر الآية ويشرحها في أيسر وأقصر عبارة ثمَّ هو يهتمُّ بإبراز المعنى والمضمون، ولا يُفرّق -ولعل المراد لا يُفرّع- في تلك التفصيلات والتفريعات التي لا طائل من تحتها ولا سبيل إلى القطع فيها، ويبدو عنده الالتزام بالنصوص في التفسير فهو يُفَسِّر القرآن بالقرآن أو بالسنة أو بالمأثور، ويبدو اهتمامه بالمسائل الكلاميَّة أثناء تأويله للآيات»[٣].

ويقول الدكتور بلقاسم الغالي: «ومن الوثائق النَّادرة تأويلات أهل السُّنَّة، قد عالج فيه بحذقٍ ومهارةٍ

---

(١) أخرجهُ التِّرمذي، وقال: حديثٌ حسن (١٩٩/٥)، رقم الحديث (٢٩٥١).

(٢) تأويلات أهل السُّنَّة (٣٤٩/١).

(٣) إمام أهل السنة والجماعة أبو منصور الماتريدي وآراؤه الكلامية، د. عبد الفتاح المغربي (ص:٢٧).

قضايا اعتقاديَّة وأصوليَّة وفقهيَّة فضلًا عن التفسير والشرح لكتاب الله العزيز، وذكر الاحتمالات في غير تطويلٍ مُملٍ، ولا إنجازٍ مُخلٍ، وكان مقتصدًا في تعويله على النَّقل، غير مكثرٍ من الاستشهادات بأنواعها ما عدا استشهاده بالقرآن فهو قد يُفَسِّر الآية بالآية في كثيرٍ من المواضع، قليل الاستشهاد بالأحاديث النبويَّة مع خلوِّه من الإسرائيليات خلوًا تامًا، فكان بحق تأويلًا لأهل السُّنَّة من غير تحكُّمٍ ولا تعسُّفٍ»(١).

من خلال هذين النَّصَّيْنِ يتبيَّن لنا أنَّ منهج الماتريديّ في التفسير يتَّسِم بغلبة الطابع الكلامي عليه، ولزوم جانب الإيجاز والاختصار وذلك بالتركيز على بيان المعنى والمضمون دون الخوض في التفريعاتِ التي لا طائل منها.

وبناءً على ما تناولناه حول مكانة تفسير الماتُريديّ، وما ذكره الماتُريديّ نفسه حول التفريقِ بين التفسيرِ والتأويل، ومن خلالِ الاستقراء الدَّقيق لما يقوله الإمام الماتُريديّ في تفسيره، يُمكن أن نستخلص سمات تفسيرِهِ في النقاط التالية:

أولًا: اتَّسَمت تأويلات الإمام الماتُريديّ بالموسوعيَّة والشموليَّة، وذلك بالنَّظرِ إلى تعدُّد الرُّؤى تجاه النَّصِّ القرآنيّ البليغ الذي يحتاج لعالِمٍ موسوعي كالإمام أبي منصور الماتُريديّ من أجلِ الوقوفِ على ما ينبغي الوقوف عليه من أحكامه التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، ولقد أبلى الإمام الماتُريديّ في هذا المضمار بلاءً حسنًا.

ثانيًا: اتَّسمت بالموضوعيَّة العلميَّة المتناهية في نسبةِ الأقوالِ إلى أصحابِها، والإحالات الدَّقيقة التي امتلأت بها تأويلاته.

ثالثًا: اهتمام الإمام الماتُريديّ بربط عمليَّة الفكر بعملية التطبيق والعمل، فالأفكار الذهنية لا قيمة لها بعيدةً عن العمل والتطبيق؛ ولذلك في كثيرٍ من الأحيان كان يرفضُ تفصيلات لا طائل تحتها، ويذكر ذلك في صراحة أنه ليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة.

وهذا يفسر لنا اهتمامه في تفسيره لآياتِ القرآن الكريم بمعناها أكثر من اهتمامِهِ بالشَّكلِ أو اللَّفظِ، فالمهمُّ عنده كشف المضمون ومرامي الآيات.

رابعًا: أنَّ ما ذهب إليه الإمام الماتُريديّ في تحديدِ مفهومي التفسير والتأويل وضبط الحدود بينهما، يُمَثِّل مبحثًا منهجيًا دقيقًا حيث اجتهد رَحِمَهُ اللَّهُ في تأصيلِ أمرين أساسيين:

---

(١) أبو منصور الماتريدي حياته وآراؤه العقدية، د. بلقاسم الغالي (ص: ٥٨).

أولهما: توسيع الآفاق الممكنة لعمليَّة تداول النَّص القُرآني ومقاربتهِ بالممكن المتاح من الآليات، وإخراج علم التفسير من دائرة المناهج التقليديَّة التي تحُدُّ من الإمكانات الدلاليَّة للنَّصِّ ومتلقِّيه على حدٍ سواء، وهذا الأمر في الحقيقة من الأهمية بمكان؛ حيثُ فتحَ الماتُريديّ آفاقًا جديدةً للتعامل مع النَّصِّ القرآني بعيدًا عن مناهج المفسِّرين قبله والتي اعتمدت بشكلٍ أساسي على الروايات المسندة كابنِ جرير الطبريّ (ت:٣١٠هـ)، وأبي بكر بن المنذر النيسابوريّ[١](ت:٣١٩هـ)، وبهذا سبق الماتُريديّ غيرهُ في هذا المضمار، حيث نجدهُ موسوعيًا كما أسلفت.

وثانيها: فصلُ المقاربة البشريَّة الاجتهاديَّة عن ذاتِ المتنِ المؤوَّل، وإضفاء صبغة الظنِّيَّة والاجتهاديَّة عليها، ومفهوم التأويل بهذا المعنى يحمل –رغم موسوعيَّة الإمام– كثيرًا من التواضع، ومن التَّبَرُّؤِ من القطعيَّة والإطلاق؛ حيثُ إنَّه غالبًا ما يختم تفسيره بقولهِ: «واللهُ أعلمُ بالصَّواب»، «وباللهِ التوفيق»، «ولا قوَّة إلا بالله»، كتفسيرهِ لقولهِ ﷻ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ [سورة الكهف:١١٠]، قال: «يحتمل: حقيقة الإشراك في العبادةِ والألُوهيَّة، على ما أشرك أُولَئِكَ: أشركوا الأصنام والأوثان التي عبدوها في عبادتهِ وألوهِيَّتِه، ويحتمل: المراءاة في العمل الصالح، على ما يُرَائِي بعض أهل التوحيد في بعضٍ ما يعملون من الطاعَةِ والخيرات، واللهُ أعْلَمُ بالصَّواب، وصَلَّى اللهُ على سيِّدِنا مُحَمَّد وآلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمعين»[٢].

ولا ريب أنَّ العلم يزكو بموضوعه، والموضوع يشذو بعرف أقباسه، وما الأقباسُ إلا شهبٌ استنارت بعلم القروم السابقين، إذ على دركهم التعويل، وإلى رسمهم يؤول التأويل، فالمصادر التي أثَّرت في تأويلات الماتُريديّ وأثْرَتْها، بيانها فيما يلي:

أولًا: القُرآنُ الكريم.

اعتمد الإمام الماتُريديّ في تفسيرهِ لبعضِ آياتِ القرآن الكريم وليس في كلِّها، ولعل ذلك راجعٌ إلى ميلهِ التفسيري إلى التفسير بالرأي، فكان يُحَلِّل الآية الكريمة ثم يأتي بآيةٍ أخرى مفسِّرة تدلُ على المعنى الذي ذهب إليه الإمام.

وتفسير القرآن بالقرآن هو أدقُّ أنواع التفاسير وأجلُّها وأشرفُها، وأجمع العلماء على اعتباره المصدر

---

(١) الحافظ أبو بكرٍ محمَّد بن إبراهيم بن المنذر بن الجارود النيسابوريّ، فقيهٌ مجتهد، كان شيخ الحرم في مكَّة، قال عنه الذهبيّ: «ابن المنذر صاحب الكتب التي لم يُؤلَّف مثلها»، منها: المبسوط في الفقه، تفسير القرآن، وغير ذلك، تُوفي بمكَّة سنة (٣١٩هـ). يُنظر: تذكرة الحفاظ (٤/٣)، لسان الميزان (٢٧/٥).

(٢) تأويلات أهل السُّنة (٢١٧/٧).

الأول للتفسير؛ لأنَّه من وحي السماء الذي لا يأتيه الباطل من بين يديهِ ولا من خلفه، لذلك كان اعتماد الماتُريديّ هذا المنهج دليلٌ على فَهمهِ عن الله -تعالى-، ومع ذلك استفاد من العقل في بيانِ ما أُشكِل من القرآن، والذي لم يرد عنه تفسيرٌ من القرآن الكريم.

ومن النماذج الدالة على هذا ما جاء عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [سورة الأنعام:٥٣].

فقد قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: (وَكَذَلِكَ) لا يتكلم به إلا على أمر سبق، فهو -والله أعلم- يحتمل أن يقول: لما قالوا: يا مُحَمَّد، أرضيت بِهَؤُلَاءِ الأعبد من قومك، أفنحن نكون تبعًا لِهَؤُلَاءِ، ونحن سادة القوم وأشرافهم؟! فقال عند ذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: كما فضلتكم على هَؤُلَاءِ في أمر الدنيا، فكذلك فضلتهم عليكم في أمر الدِّين، ويكونون هم المقربين إلى رسول الله ﷺ والمدنين مجلسهم إليه، وأنتم أتباعهم في أمر الدِّين، وإن كانوا أتباعكم في أمر الدنيا، وكذلك امتحان بعضهم ببعضٍ، ويحتمل وجهًا آخر وهو أن يُقَال: كما كان له امتحان كل في نفسه ابتداء محنة، كقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ﴾ [سورة الأنبياء:٣٥]، وكقولهِ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [سورة الأعراف:١٦٨]، وكقولهِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥﴾ [سورة البقرة:١٥٥]»(١).

فالماتريديُّ بعد أن ذكر رأيه التأويلي للآيةِ الكريمة أتى بالآيات للتدليل على ما ذهب إليه، وهذا من منهجه التفسيري وهو الرأي المقيَّد بالنص القرآني.

ثانيًا: الحديث النبويّ الشريف.

اعتمد الماتُريديّ في تفسيرهِ على تفسير القرآن بالحديث النَّبوي الشريف، ولم يعتنِ بالأسانيد في أثناءِ ذكرهِ للأحاديث، وذكر صاحب أوَّل تحقيقٍ لتأويلات الماتُريديّ أنَّه كان يذكر بعض الأحاديث بالمعنى، فهو على ما يبدو يعتمد على حفظهِ ولا يرجع إلى نصوص الأحاديث في أثناءِ تأويله(٢)، ولا يكتفي بإيراد الحديث النبوي، بل يُوجِّه ويُعلِّل ويُحلِّل، ويُبيِّن مراده، وفي هذا إثراءٌ لمعنى الآية وبيان المقصود منها.

ومثالُ ذلك:

«وقوله ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ [سورة هود:٨٤]، أي: إلى مدين أرسلنا، ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ

---

(١) تأويلات أهل السُّنة (٤/٩٤).

(٢) يُنظر: تأويلات أهل السُّنَّة (ص:٢٩)، تحقيق إبراهيم عوضين وسيِّد عوضين، طبعة/ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

﴿ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [سورة هود:٨٤]، هذا قد ذكرنا فيما تقدَّم: أنَّ كل نبيٍّ أول ما دعا قومه إنما دعا إلى توحيد الله، وجعل العبادة له.

وفي قوله: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وما ذكر في غيره من الأخوة دلالة على أنَّ الرُّسُل من قبل كانوا يُبْعَثون من جنس قومهم لا من الملائكة حيث قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، ومعلوم أنهم لم يكونوا إخوة لهم في الدِّين، وفيه أنَّ المؤاخاة لا توجب فضيلة المؤاخاة له؛ لأنه ذكر أن الرُّسُل إخوة أُولَئِكَ الأقوام، ومنهم كفرة، وذلك يردُّ قول الروافض في تفضيل عليٍّ على أبي بكر بالمؤاخاة التي كانت بين رسول الله وبين عليٍّ؛ والخُلَّة توجب الفضيلة، وقد جاء عنه عليه السلام أنَّه قال: "لَو اتَّخَذْتُ سِوى رَبِّي خليلًا، لاتَّخَذْتُ أبا بكرٍ خليلًا"»[1].

ثالثًا: أسبابُ النزول.

اهتمَّ الماتريديّ بأسبابِ النزول في تفسيره، فقد دوَّن مجموعة من الرواياتِ فيها، فهناك أكثر من مائةٍ وخمسين موضعًا قام الإمام الماتريديّ بذكر أسباب النزول فيها، ونقل الروايات المختلفة[2].

وطريقةُ الماتريديّ في أسباب النزول تمتاز بِسِمَاتٍ خاصة في عرضه لهذه الأسباب، تُخَالِفُ ما درج عليه المفسِّرون، فالمفسِّرون حين يتعرضون لذكر هذه الأسباب يصرحون بذلك، فيقولون: وَرَدَ في سبب النزول كذا، أو سبب نزول هذه الآية، وهكذا.

أمَّا الماتُريديّ فغالبًا لا يُصَرِّح، وأحيانًا يسرد المرويَّات التي وردت في سبب النزول ولا يكتفي بروايةٍ واحدة، وأحيانًا أخرى يكتفي برواية واحدة.

ومما ذكره في أسباب النزول ما جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ①﴾ [سورة الأنفال:١].

حيث قال: «فالسُّؤالُ يحتمل وجهين: يحتمل أنهم سألوا عن حلها وحرمتها؛ لأن الغنائم كانت لا تحل في الابتداء، قيل: إنهم كانوا يغنمونها ويجمعونها في موضع، فجاءت نار فحرقتها، وسألوا عن حِلِّها وحُرْمَتِها، فقال: ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، أي: الحكم فيها لله والرسول يجعلها لمن يشاء.

ويحتمل السؤال عنها عن قسمتها، وهو ما رُوِيَ في بعض القصَّة أنَّ النَّاس كانوا يوم بدرٍ ثلاثة

---

(١) تأويلات أهل السُّنة (٦/١٦٦).

(٢) يُنظر: بحث بعنوان: مباحث علوم القرآن في تفسير الماتريديّ المسمَّى تأويلات أهل السُّنة، د. أحمد قادر، مجلَّة الجامعة العراقيَّة (العدد ٣٨، ج٢، ص:٨٣).

أثلاث: ثلثٌ في نحر العدوّ، وثلثٌ خلفهم ردءًا لهم، وثلثٌ مع رسول الله ﷺ يحرسونه، فلما فتح الله عليهم اختلفوا في الغنائم، فقال الذين كانوا في نحر العدو: نحن أحقُّ بالغنائم، نحن ولينا القتال، وقال الذين كانوا ردءًا لهم: لستم بأولى بها منا، وكنا لكم ردءًا، وقال الذين أقاموا مع رسول الله: لستم بأحق بها منا، كنا نحن حرسًا لرسول الله فتنازعوا فيها إلى رسول الله، فنزل ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾، وقال أبو أمامة الباهلِيّ: سألتُ عبادة بن الصامت عن الأنفال، قال: فينا نزلت معشر أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا؛ إذ انتزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسوله، فقسَّمه على السواء»(١).

آثرْتُ هذا المثال، والمتتبّع لتفسير الماتُريديّ يرى أنَّه على هذه النّحلة من القول.

رابعًا: أقوالُ من سبقَهُ من الصَّحابةِ والتابعين وأتباعهم.

استعان الماتريدي بأقوال المفسرين قبله من لدن الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم، فهو يُدَلِّلُ على صحة ما يذهب إليه أحيانًا بذكر أقوال هَؤُلَاءِ المفسرين حول الآية.

وطريقته في التعامل مع أقوال المفسرين قبله، تكاد تتطابق مع طريقة تعامله مع القرآن والسنة حين يعتمد عليهما في التفسير؛ حيث يقوم بتحليل الآية محل التأويل، ثم يعرض بعد ذلك أقوال العلماء حولها، وقد يعرضها على إطلاقها، وقد يختار من بينها، وقد يبدي اعتراضًا على بعضها.

ففي قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [سورة التوبة:٨] يبدأ الماتُريديّ بشرح معنى الآية فيقول: كيف تعطون لهم العهد، وكيف يستحِقُّون العهد، ولو ظهروا عليكم لا يرقبون فيكم إلاًّ ولا ذمة.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: وكيف لا تقاتلونهم (وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً)»(٢).

ثم أدار حوارًا طويلاً، نقل فيه كثيرًا من أقوال المفسِّرين قبله حول معنى كلمة (الإل)، قال: «الإل: الله، والذمة: العهد. وقيل: الإل: القرابة، وقيل: الإل: العهد والذمة.

وقَالَ الْقُتَبِيُّ: الإل: العهد. قال: ويقال: القرابة.

وقال أَبُو عَوْسَجَةَ: الإل: القرابة.

وقال أبو عبيدة: الإل: العهد، والذمة: التذمم.

(١) تأويلات أهل السُّنة (١٩٣/٥).

(٢) تأويلات أهل السُّنة (١٩٣/٥).

وقال ابن عَبَّاسٍ: الإل: الله، بمنزلة جبريل، تفسيره عبد الله؛ لما قيل: جبر هو عبد الله.

وقيل: الإل: الحرم، يقول: كيف تعطونهم العهد، وهم (وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً) القرابة ولا العهد، ولا يرقبون الحرم فيكم، وقد كانوا يحفظون فيما بينهم القرابة والرحمة حتى يعاون بعضهم بعضًا، ويناصره، إذا وقع بين قرابتهم ورحمهم وبين قوم آخرين مباغضة وعداوة، وكانوا يرقبون حرم الله حتى لا يقاتلوا في الأشهر الحرم وعند المسجد الحرام، وكانوا يحفظون العهود فيما بينهم من قبل، ولا يرقبونها فيكم ولا يحفظونها»(١).

ونُلاحظ أن نقوله السابقة اتجهت إلى معنى اللفظ في مجملها، ولم تتجه إلى المعنى العام للآية، وهو بذلك لا يكون ناقلاً عن علماء التفسير وحسب، بل قد يقع نقله في دائرة النقل عن علماء اللغة والأدب(٢).

خامسًا: عِلْمُ الفقه وأصوله.

الإمامُ الماتريديّ حنفيّ المذهب، بل يُعَدُّ من مجدِّدي مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، ويتضح ذلك جليًا في تأويلاته لآيات الأحكام في القرآن الكريم، فيقف الإمام الماتُريديّ أمام آيات الأحكام مُبيّنًا أحكامها، وتتمثَل طريقتهُ في أنَّه يلجأ إلى تحليلِ الآية التي تتضمَّن الحكم الفقهي على الفقه الحنفي، فيوردُ أقوال الفقهاء ثُمَّ يعمل الملكة الفقهية لديه في الاستنباط.

ولم يكن الماتريدي ناقلاً تابعًا للمذهب الحنفي وحسب، بل كان مجددًا، فهو قد أخذ من المذهب الحنفي أسلوبه في التفكير العقلي، واعتماده الرأي في التفسير والفقه والعقيدة، لكن دون إهمالٍ للنَّصِّ، بل -كما سبق- وازن الماتريدي بين النقل والعقل موازنة جعلته من العلماء أصحاب الآراء الصائبة في كثير من الأحوال.

والأمثلةُ على ذلك كثيرة في تفسيره(٣).

سادسًا: علومُ اللغة.

الإمام الماتريديّ في تفسيره لا يتوسَّع كثيرًا في القضايا اللغويَّة، ويصب جلَّ اهتمامه على المعنى دون اللفظ بيد أنَّ الإمام له توجيهات نحوية ونكات بلاغية تُبيّن توظيفه لعلوم اللغةِ في تفسيره، والمتتبّعُ لتفسيره يجد أنَّهُ يعرج على اللغة بهدفِ الكشف عن مراد الله من الآية، فهو لا يفعل كبعض المفسرين الذين ينصب اهتمامهم على اللغة، حتى تكاد تفسيراتهم تكون لغوية خالصة ككتب معاني القرآن، مثل: معاني القرآن

(١) تأويلات أهل السُّنة (١٩٣/٥).

(٢) يُنظر: تأويلات أهل السُّنة (٣٢٠/١).

(٣) يُنظر: تأويلات أهل السُّنة (٥١٨/١)، (١٨/٢)، (٤١٢/٥).

وإعرابه للزجاج، ومعاني القرآن للأخفش، ومعاني القرآن للفراء وغيرها، أو تكون التفسيرات ذات صبغة لغوية بارزة بجوار الاهتمام بمعاني الآيات، كتفسير النسفي.

وقد وظَّف الإمام الماتُريديّ البلاغة في تفسيره، ورغم قلَّتها؛ كانت الإشارات البلاغية لديه دالةً على حُسنِ استدلاله، ومعرفته الفنون البلاغيَّة، وإن لم تكن مصطلحاتها قد استقرَّت تمامًا لأيامه، وهكذا كان يُطلقها على معرفةِ القارئ بها، أو يُقرِّر وجه البلاغة في الآية من دون احتفالٍ بالمصطلحات، ومن هذا ما يُلحظ في تفسيرهِ لقولهِ تعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾ [سورة التوبة:٨٢] إذ قال: «يُشْبِهُ أن يكون الضَّحك كناية عن الفرح والسُّرور، والبكاء كناية عن الحزن، يقول: افرحوا وسرّوا قليلاً، وتحزنون في الآخرة طويلًا»(١).

ولعل عدم اهتمام الماتريدي بعلوم اللغة راجع إلى أمرين:

الأوَّل: اهتمامه بالمضمون دون الشكل، والمعنى دون اللفظ.

والثَّاني: اهتمامه في تفسيره بالمسائل العقدية والفقهية، وهو أمر مترتب على الأول(٢).

هكذا الماتريديّ يوجِّه الصَّنعة البلاغية لخدمة المعنى التأويلي، وهذه بعض ملامح منهجه في علومِ اللغة.

سابعًا: التفسير بالرأي.

والمراد به: الفَهم في القرآن، وهذا الفهم إنما هو رأيٌ لصاحبِهِ، غير أنَّهُ رأيٌ محمود؛ لأنَّ الإمام الماتُريديّ لم يُناقض التفسير المأثور والمنقول ولم يُعرِض عنه، بل اعتمد عليهِ في تفسيره، مع اعتمادهِ على المصادر الأخرى في التفسير.

فنجد الإمام الماتُريديّ في تفسيره يعتمد على العقل كثيرًا، ولعل مرجع ذلك إلى أنَّ الماتريديّ تابعٌ للمدرسة العراقيَّة، أو مدرسة الرأي التي أسسها الصاحبي الجليل عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، وقاد لواءها من بعدهِ أعلامٌ أفذاذٌ، من أبرزهم أبو حنيفة النُّعمان وتلميذاه أبو يوسف ومحمَّد؛ الذين أثروا الحياة الفكرية والعلمية في الحضارة الإسلامية.

ولأنَّ الماتُريديّ تلميذٌ لتلك المدرسة، بل رائدٌ من روَّادها فقد اصطبغَ بصبغتها، لكنَّه لم يكن تابعٌ

(١) تأويلات أهل السُّنة (٥/٤٣٩).

(٢) يُنظر: تأويلات أهل السُّنة (١/٣٢٧).

ومقلِّد، بل كان مجدِّدًا -كما أسلفت-، والذي يدلُّ على عقلانيَّة الماتريدي أمورٌ منها:

أنَّهُ يذكر الاحتمالات المتعدِّدة في تأويل الآيات، ويهتمُّ بالأمور الفلسفيَّة والعقديَّة، فما من آيةٍ تتعرَّض لأيِّ أمرٍ عقدي أو فكري إلا ويقف أمامها؛ لإبرازِ جوانبها المتعدِّدة بإعمالِ عقله.

وقد اهتمَّ الماتُريديّ في تفسيرهِ بالدِّفاع عن عقيدة أهل السُّنة والجماعة، وبدحضِ آراء المعتزلة وتفنيدها اهتمامًا كبيرًا، وردَّ أيضًا على الجهميَّة والخوارج والمرجئة والجبريَّة وغيرهم من الفرق الضالَّة، والأمثلة على هذا كثيرة ومنتشرة في التفسير(١).

وأخيرًا: فمن خلال عرض قيمة تفسير الإمام الماتُريديّ العلميَّة، وعرضِ سماته، يتبيَّن للقارئ أنَّه أمام تفسيرٍ جمعَ كثيرًا من أطرافِ العلوم، وأنَّ مؤلِّفهُ ينتمي إلى اتِّجاهٍ معتدلٍ يوازنُ فيه بين النقلِ والعقل.

---

(١) يُنظر: تأويلات أهل السُّنَّة (٣٦٧/١)، (٣٨٨/١)، (٤٤١/١)، (١٠٩/٢)، (٣٠٥/٢)، (٥٢٨/٢)، (٤٦٤/٦).